البروفيسور سليمان ملوكي.

جامعة المسيلة ، كلية الحقوق والعلوم السياسية.

قسم العلوم السياسية .

المقياس المدرس : ابستمولوجيا المعرفة السياسية.

المستوى : السنة الأولى ما ستير .

اختصاص : العلاقات دولية

مطبوعة رقم 1 : مدخل تمهيدي. في الأبستمولوجيا.

مقدمة

مصطلح Epistemologie في اللغة الفرنسية مشتق من الكلمة اليونانية Episteme والتي تعني "العلم" أو "المعرفة العلمية" والمقطع "Logie" الذي يعني في أصله اليوناني "Logos" أي "نظرية" ، وبالتالي فإن كلمة "أبستمولوجيا" تعني حرفيًا "نظرية العلم. ".

ويقدم "أندريه لالاند" تعريفاً للأبستمولوجيا ،حيث يرى فيه أن هذه الكلمة تعني فلسفة العلوم ، والتي تعني دراسة نقدية لمبادئ العلوم وفروضها ونتائجها بغية تحديد أساسها المنطقي "لا النفساني" ، وقيمتها ومداها الموضوعي.[1] تعتبر نظرية المعرفة أحد فروع الفلسفة الذي يدرس طبيعة و منظور المعرفة، المصطلح بحد ذاته (أبستمولوجيا) يعتقد أنه من صاغه هو الفيلسوف الاسكتلندي جيمس فريدريك فيرير. James Fréderic.

وهي تختلف بهذا عن علم مناهج العلوم (ميثودولوجيا) لأن الأبستمولوجيا تدرس بشكل نقدي مبادئ كافة انواع العلوم و فروضها و نتائجها لتحديد أصلها المنطقي و بيان قيمتها.[2]

إن معظم الجدل أو النقاش في هذا الفرع الفلسفي يدور حول تحليل طبيعة المعرفة وارتباطها بالترميزات و المصطلحات مثل الحقيقة ، الاعتقاد ، و التعليل . تدرس الأبستمولوجيا أيضا وسائل إنتاج المعرفة، كما تهتم بالشكوك حول ادعاءات المعرفة المختلفة . بكلمات اخرى تحاول الأبستمولوجيا أن تجيب عن الأسئلة : ماهي المعرفة؟ كيف يتم الحصول عليها ؟ و مع أن الإجابة عن هذه الأسئلة يتم باستخدام نظريات مترابطة فإنه يمكن عمليا فحص كل من هذه النظريات على حدى .

إن الباحثين الإبستمولوجيين من أمثال (مايرسون) Marissonو(بوانكاريه) Poincaré و (رسل)Bertrand russel و(باشلار)Gaston Bachelard يمضون وراء أهدف متباينة بشأن تعريف وموضع تطبيق الابستمولوجيا، كذلك يفعل كارل بوبر karl poper في مقدمة الطبعة الإنكليزية للكتاب" منطق الاكتشاف العلمي" (1958) معتبراً :" أن المشكلة المركزية في الابستمولوجيا كانت وتبقى مشكلة نمو المعرفة والسبيل الأفضل لدراستها هي دراسة نمو المعرفة العلمية."[3]

ويذهب جان بياجه Pierre janet إلى هذا الوضع بالذات عندما يقول :"إن المشكلة المركزية في الابستمولوجيا هي تبيان ما اذا كانت المعرفة تنحلّ إلى مجرد تسجيل المرء معطيات منتظمة سلفاً بصرف النظر عنه في العالم الخارجي(الفيزيائي أو المثالي) أم أن المرء يتدخل في المعرفة وفي تنظيم موضوعاتها كما حسب الفيلسوف الألماني كانط Kant.

فالأبستمولوجيا التكوينية هي نوع خاص من الإبستمولوجيات الحديثة ، حيث رأى بياجيه piaget أن الخطأ العقيم الذي ارتكبه الفلاسفة يكمن في نظرتهم إلى المعرفة كواقعة نهائية وليس كسيرورة، وقد ذهب بدوره إلى أن جميع القضايا العلمية قابلة للمراجعة والتصحيح والنقطة الأخيرة يوافقه عليها باشلار عندما يعتبر أن العلم هو تاريخ تصحيح أخطاء العلم وبالتالي فالمنهج التكويني في الأبستمولوجيا يستلزم النظر إلى المعرفة من زاوية تطورها في الزمان أي كتكوين وتطور ، وهذه الأخير تتطابق مع رؤية باشلار لما يسميه الفلسفة المفتوحة.[4]

و حينما نود التوغل أكثر في تعيين المفهوم نُلاحظ مشكلتين أساسيتن، الأولى : مشكلة وحدة العلوم، وهي مطروحة لدى(كونت) و(مايرسون) مثلاً، وقد زعزعها (باشلار)، ثم مشكلة وحدة أشكال المعرفة: إذ يرى باحثون مثل(مايرسون) أن هناك استمراراً بين المعرفة العامية والعلم، ويرى آخرون مثل(باشلار) وأتباعه أن ثمة انقطاعاً بل انقصاماً بين المعرفة والحس المشترك إزاء العلم وهو ما يدعوه بالعقبة الأبستمولوجية.

أولا/ **الأبستمولوجيا وفلسفة العلوم**.

يرى بلانشيه Plancher أن منشأ التمييز الدقيق يزداد عسرا بين الأبستمولوجيا وفلسفة العلوم، وذلك من جراء مرونة هذه العبارة الأخيرة. فثمة من يعترض على السمة الفلسفية للمبحث الابستمولوجي ويرى أن المهمة الأولى للأبستمولوجيا تتمثل في تعيين معيار قبلي لكل معرفة علمية. فإذا نظرنا إلى فلسفة العلوم بالمعنى الأوسع وجدنا أن الأبستمولوجيا فصلا من فصولها، أو طرازا من طراز ممارستها. وعلى هذا النحو نميز أربع وجوه مختلفة لفلسفة العلم:

- السعي لوضع العلم داخل مجموعة القيم الإنسانية.
- التحليل المنطقي للغة العلم.
- المحاولات الفكرية التي تنطلق من نتائج العلم وتجاوزها لبلوغ ما يمكن تسميته فلسفة الطبيعة.
- دارسة علاقاته بالعالم وبالمجتمع.[5]

لقد أسهم (كانط) Kant في مزيد من جلاء مسعاه بإقامة مشروع فلسفي على أساس فلسفة العلوم. فلئن عرفت الرياضيات والفيزياء طريقا للعلم اليقيني وجب على الفلسفة والميتافيزيقا أن تسيرا على الدرب ذاته. فهو محدّد بشروط الإمكان الذي يرسم حدوده. وعلى هذا النحو يتضح أن الرياضيات والفيزياء هما علوم التجربة بالنسبة إلى الشروط القبلية المتصلة بإمكان و جودهما.

ليس بين العلم والفلسفة في نظر(ديكارت) أي انقطاع، وإنما بينهما اتصال مستمر. وعلى هذا النحو لا يجد الفيلسوف أمامه من سبيل أفضل من محاك العالم واتخاذ العلم نموذجا وفي ذلك يقول :"إن هذه السلاسل الطويلة من الحجج البسيطة والسهلة ،التي تعوّد علماء الهندسة استعماله للوصول إلى أصعب البراهين، التي يمكن أن تقع في متناول المعرفة الإنسانية ،تتعاقب على صورة واحدة، وعلى هذا النحو لا تتميز الفلسفة بمضّادة العلم، بل بالاستمرار معه. إنها تقلّد العلم، تعيد إحداثه ،وتجعله يستمر.

لقد صارت الفلسفة بوصفها معرفة أساسية، معرفة الأسس التي يتمكن تصورها في منطلقا لنظام الذي تتكون منه أوفي نهايته سواء بسواء.[6]

ويمضي بعض الإيبستمولوجيين إلى أبعد من ذلك فيقطعون الجسور بين المفهومين، وكأنهم يسعون إلى صون الأبستمولوجيا ،كمصطلح جديد من فساد يصيبها من الفلسفة!، الأمر الذي يُقار ببين المفهوم والعلم بمسعىً للابتعاد غير المبرر عن الفلسفة ،وهذا ما يجعل بلانشيه planchier يلاحظ أ نهم يتحاشون استعمال هذه الكلمة الأخيرة، وهو ما براه أولئك الذين لا يعترفون بأي شكل للمعرفة شريطة أن يكون هذا التحليل ذاته بحس بطرائق علمية.

وهذا الموقف لا ينطلق دائماً من اتخاذ موقف مضاد للفلسفة، إذ أن لأبستمولوجيا باتت تفلت أكثر فأكثر من قبضة الفلاسفة، وتنتقل الى العلماء أنفسهم، وهذه سمة من سمات الأبستمولوجيا المعاصرة الماثلة في اضطلاع العلماء المختصين بالمشكلات الأبستمولوجية بالتدرج.

ومن شأن الفلسفة أن تعنى عناية عفوية بفلسفة العلوم، فإيضاح سبيل المعرفة العلمية وتحديد الموضوعات التي تتناولها وبيان صحتها، أي (بيان أساسها في مضمار الحقيقة) يمرّ بمعرفة العلماء؛ فالمعرفة العلمية ، والرياضيات هي ضابطها الرصين ،وهي معرفة متحررة من الحس، ومتصلة بآلية البرهان ،لكنها عاجزة عن البرهان على حقيقة براهينها الخاصة، وعاجزة عن العثور في ذاتها على أساس مقالها. ولذا يترتب على الفيلسوف أن يعترف في وقت من الأوقات بتخطي صعيد العلم ليكتشف في مكان آخر، ما ينطوي على شروط حقيقتها الخاصة. وهنا نلمس استفادة الفلسفة من فلسفة العلوم: إنها لا تجد في المعرفة العلمية موضوعا لمعرفة وحسب، بل تجد كذلك ما يميز خصوصيتها.

وبعبارة أخرى إن فلسفة العلوم تقرر مصير الفلسفة ذاتها ما دامت أنها تمنحها كفالة وجودها ذاته ، وما الحكم (السلبي) على العلم إلا ،في الوقت ذاته ،حكم (إيجابي) على الفلسفة.[7]

ويتضح إذن أن علاقة الفلسفة بالعلم علاقة هادفة على نحو تحققها في فلسفة العلوم. حيث يكون العلم ذريعة التفلسف. ويتجلى نشاط ذلك التفلسف بتعيين منزلة المعرفة العلمية أولاً ثم يتجلى نشاط التفلسف في مضمار العلم في مشكلة اخرى هي مشكلة حدود المعرفة، ولاسيما المعرفة العلمية.

ولكن الأبستمولوجيا ليست تاريخية بالضرورة. ففلسفة العلوم سبقت الأبستمولوجيا، كما سبقت نظرية المعرفة تلك الفلسفة. والجدير بالذكر أن فلسفة العلوم في نظر(كانط) ومن بعده كانت أشبه بلجنة مراقبة تضبط شروط صحة المعرفة التي يسارع اليها العلماء بطبعهم ليتحاشوا قراراتها ولكنها تلاحقهم بما يتوجب عليهم من الموانع والمحظورات والتصنيفات بذريعة حمايتهم من الخطر، خطر موهوم هو خطر وقوع العلم في التعسف أو الوسواس. وعلى الأبستمولوجيا أن تزوّد العلماء بالسلاح الذي يعينهم على دفع الحالات الحرجة، وأن تنير سبلهم.

و في ذلك يقول (باشلار) Bachelard: " إن العقل ينمو في جو الأزمة. وكل نضج فكر بشكل عائقاً في درب المعرفة".

ثانيا/. **الأبستمولوجيا ونظرية المعرفة**.

تختص نظرية المعرفة كما بات معلوماً في إمكانية قيام معرفة ماعن الوجود بمختلف أشكاله ومظاهره ،وما إذا كانت المعرفة ممكنة وبالسؤال عن أدواتها وحدودها وقيمتها ،وتأسست في سياقها هنا عدة مذاهب منها المذهب العقلي الذي يعتبر العقل هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة وفيه تتأسس معرفة قبلية فطرية ، والمذهب الحسي (التجريبي) الذيُ يحيل المعرفة إلى الحواس باعتبار أن العقل صفحة بيضاء TABU LA RASA و انه لا معرفة بشكل قبلي.

ولكن جان بياجه، jean piaget مثلا ،يعد "الأبستمولوجيا" و"نظرية المعرفة" أمرين مترادفين. ذلك أن العلم والفكر العلمي، إنما ينشئ أحدهما الآخر بالتدريج ودون أن يبلغ احالا لإنجاز في تطور المجتمعات وفي نمو الفرد سواء بسواء. وإذ ذلك تكون كالأبستمولوجيا تكوينيةً ،سواء تناولا لأمر تاريخ العلوم أو علم نفس الطفل، وهي تتسع بالضرورة لنظرية المعرفة ،ما دام أنها تتوخي اجتياز جميع المراحل المطورة للمعرفة العلمية – أي أنها تنظر إلى المعرفة في أشكال

يمكن أن نحكم عليها انها سابقة للعمل، و لا نستطيع ،بالرغم من ذلك، أن نمنع عنها أية قيمة علمية.

إن التفريق النظري بين الأبستمولوجيا وبين نظرية المعرفة ضروري معا لاعتراف حقاً بأن هذا التمييز لا يُراعي في الواقع على الدوام، وذلك لأسباب تتصل بالمفردات وحدها.

ففقدان اسم بسيط يمكن أن يُشتق منه نعت أو ظرف يجعل من اليسير الاستعاضة عن عبارة "نظرية المعرفة" بكلمة أيسر هي كلمة" الأبستمولوجيا". ليس ذلك من باب المسألة العلمية أن نطلب معرفة ما يمكن أن توجد خارج العلم أم لا توجد. فمثل هذا السؤال يرجع إلى نظرية عامة عن المعرفة ،يكون أحد أغراضها الأساسية هو بوجه الدقة تحديد وضع المعرفة العلمية بين أشكال أخر يمكن أن نتصورها عن المعرفة.

ترى هل توجد طرائق معرفية تمنح دروب أخرى غير دروب العلم أم لا توجد ؟. ففريق من الباحثين يؤمن بوجود ملكات غير فكرية، أو فكرية جزئياً، كالقلب "ذي الأسباب التي لا يعرفها العقل"، أو الحدس بوصفه "غريزة ينيرها الذكاء": وهذا ما يسوّغ صحة معرفة صوفية أو ميتافيزيقية.

استنتاجات بحثية :

1/ إن العلم لا يفهم بدون إطاره الفلسفي والتاريخي، والفلسفة هي تلك الشجرة الضخمة التي تؤلف الميتافيزيقيا فيها الجذور العميقة الضاربة في التربة، والعلوم المتفرقة بما فيها الطب والهندسة والكيمياء والكوسمولوجيا والانثروبولوجيا هي فروعها الممتدة في السماء.

2/ كما أن هناك علاقة جدلية بين العلم والفلسفة، فالعلم يقوم بقفزات نوعية من حين لآخر منشئاً قطيعةً معرفية "ابستمولوجية" مع المستويات العلمية السابقة، كما حدث مع فكر "ابن رشد" والفلسفة اليونانية؛ حيث تم الدخول إلى فضاء معرفي جديد، يقوم على منظومة الشك ـ اليقين، والتجربة ـ الاستقراء.

3/ - العلم لا ينمو إلا في إطار خاص، وفي مناخ عقلي مناسب تستنبت بذوره بكل رحمة وحب، وهذا الإطار الفلسفي هو الذي يشكل مرجعية العلم في أول الطريق؛ ليتحول مع الوقت إلى "الإيديولوجيا" الخانقة لكل تقدم، مما يحتاج إلى "ابستمولوجيا" جديدة محررة، وهكذا يمشي نظم التاريخ.

4/ إذا كانت الإبستمولوجيا النقدية ، كما هو شأن الإبستمولوجيا التكوينية ، تبدو اليوم كضرورة ، وإذا كان العلماء ، وكذا الفلاسفة ، منذ وجد العلم ، عن وعي منهم أو بدونه ، لم يتوقفوا عن ممارستها ؛ فذلك لأن المعرفة الإيجابية ، أي تلك التي

ننظر إليها كما لو كانت نهائية و لا يمكن المساس بها ، بمقدار ما لا يمكن أيضا أن تكون في يوم من الأيام موضوع تساؤل أو إعادة بناء على قواعد جديدة.

5/ إن هذه التعددية في اهتمامات الأبستمولوجيا شكلت غالبا نقطة اصطدام في ما بين الفلاسفة والعلماء ، فإنها سمحت بإدراك أن الأبستمولوجيا ليست مبحثا موحدا أو واحدا ، وإنما هو مبحث شديد التنوع بالنظر لتنوع مقترباته : والدليل على ذلك هو استنادها لمباحث جد مختلفة وغالبا علمية لممارسة إجراءاته.

المصادر و المراجع:

1- Lalande Andre , vocabulaire technique de philosophie 2eme edition.2.vol.puf paris 1991.

2/ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ، اللجنة اللبنانية ، بيروت ، ط2 ،1999.

3/ يفوت ، سالم ، فلسفة العلم المعاصر ومفهومها للواقع ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، ط2، 1985.

4/- J. Piaget : Programme et méthodes de l'épistémologie génétique et recherches psychologiques N° 1 des études d'Epistémologie génétique" PARIS, P.U.F, 1957.

5/ باشلار ، غاستون ، الفكر العلمي الجديد ترجمة : عادل العوا ، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، ط١٩83.

6/ امانويل كانط ، نقد العقل الخالص، ترجمة موسى وهبة، مركز الإنماء القومي. بيروت.2003.

7/ رني ديكارت،. مقال الطريقة، ترجمة ، عمر الشارني، مركز الدراسات الوحدة العربية، لبنان 2001.